العودة المتخيلة ـ الماضي إن حكى

جابر سليمان*

موسم السمسم الأخير: شظايا ذاكرة

I

فراق

حدث ذلك ذات يوم من تموز/يوليو ٢٠١١. كنت أتابع مخيم العودة الشبابي التاسع الذي دأبت "مجموعة عائدون" في كل من لبنان وسورية على تنظيمه سنوياً بحضور عشرات الشباب الفلسطيني من فلسطين والأردن ولبنان وسورية وبعض دول الشتات. وتركزت أنشطة المخيم وفاعلياته على مسألة العودة وما يرتبط بها من موضوعات تتصل بالهوية والانتماء والشتات والنكبة والذاكرة الجمعية الفلسطينية.

جاء الخبر صاعقاً، إذ أبلغتني أختي أن والدتي التي تقيم معها في عمّان توفاها اللـه... لحظتها مادت بي الأرض، وانتابتني مشاعر مختلطة من الحزن والضياع والغربة والخوف والعجز وانعدام الحيلة... لكني لم أقوَ ساعتها على البكاء. وعندما رجعت إلى بيروت، وكانت معي في السيارة زوجتي، بكيت بكاء متقطعاً صامتاً وموجعاً. وكان همّي الأكبر هو كيف سأتدبر أمر سفري إلى الأردن لحضور الجنازة في ظل المنع العبثي المفروض عليّ وعلى غيري من فلسطينيي الشتات لدخول هذا البلد الذي عُرف في كتب التاريخ ببادية فلسطين.

حاولت أن أتغلب على مشاعر الإحباط هذه، ورحت أتخيل نفسي أحنو على أمي أقبّل عينيها، من دون الحاجة إلى تأشيرة السفر والنظر في وجه شرطي الحدود القاسي المقدود من صخر البادية. وتذكرت فجأة حكاية من حكاياتها الدافئة عن القرية والأرض ومواسم الزرع، حكاية حقل السمسم الذي خلّفناه وراءنا عندما غادرنا قريتنا، في تموز/يوليو ١٩٤٨ من دون أن نتمكن من حصاده.

كثيراً ما أخبرتني أمي كلما فاض بها الحنين إلى الأرض وحكايا القرية أن سنابل السمسم في القاطع "المارس" الشرقي من أرضنا نمت بأطول من قامة رجل في موسم

---

* باحث فلسطيني.

صيف سنة ١٩٤٨، وكانت تَعِد بحصاد وافر لم تشهده في أي موسم آخر مضى... وكنت أظن أن في ذلك قدراً كبيراً من المبالغة عبر "تزيين" الماضي واستحضار الحنين واختراع الأساطير عن "جنة" أرض الأجداد، والذي عادة ما تلجأ إليه المجموعات البشرية التي تُقتلع من أرضها بشكل قسري ومأسوي. لكني تعلمت فيما بعد أن سنابل السمسم تنمو عادة إلى نصف متر، وقد تصل، إذا ما نمت في تربة مواتية، إلى المترين ونصف متر. كان حقل السمسم ذاك بسنابله الذهبية المتمايلة من فرط الامتلاء المشهد الأخير الذي تمنت أمي أن تكحّل عينيها به قبل مغادرتها القرية. بيد أن هذا المشهد لم يفارق خيالها قط طوال أعوام الغربة.

II

صور وحكايات

لا أتذكر من معالم القرية إلاّ صوراً غائمة وضبابية، وهي في الغالب صور بصرية شكلتُها من أحاديث الأهل والأقارب وذكرياتهم في القرية خلال مرحلة طفولتي المبكرة في المخيم. إذ كيف لطفل في الثالثة من عمره أن يتذكر معالم محيطه بجلاء؟ وقد حاولت مراراً أن أتثبت من تلك الصور، لكن من دون جدوى. وكثيراً ما لجأت إلى أخي الأكبر كي يجلو لي ضبابية الصور التي أختزنها في ذاكرتي عن القرية، وخصوصاً أن أخي يتذكر حواري القرية وطرقاتها وبيوتاتها بيتاً بيتاً، إذ إنها محفورة في ذاكرته، كقصيدة منقوشة على حجر، كما قال.

وحكى لي أخي حكاية فولكلورية عن سور القرية القديم وأصل التسمية التي سُميت بها القرية، فقال إن أوائل الفلسطينيين الذين سكنوها سمّوها "تل الذهب" لأنهم كانوا يعتقدون بوجوده في بطن التل. حفروا في كل مكان تحت السور وفي محيطه بحثاً عن الذهب المدفون من دون جدوى. وعندما أعيتهم الحيلة وجاء موسم الشتاء نبتت شجيرات الترمس البري في الحفر التي غطاها المطر، وتكاثرت حتى غطت التل كله، ولذلك عادوا وغيروا اسمها إلى "تل الترمس".

كما حكى لي أخي حكاية أُخرى عن الظروف والملابسات الغريبة التي جاء بها أبي وجئنا من بعده إلى هذه الدنيا.. حكاية يمتزج فيها الواقع بالموروث الفولكلوري وتعود إلى أواخر العهد العثماني، عندما تسببت مياه الأمطار المتبقية في الوادي الذي يمر بالطرف الجنوبي من القرية بانتشار وباء الكوليرا في فصل الصيف. فقد حصد الوباء في فترة قصيرة عدداً كبيراً من أهالي القرية، بمَن فيهم جدي وأولاده الخمسة الذين رحلوا عن الدنيا الواحد تلو الآخر، فلم تتحمل جدتي لأبي هذا المصاب الكبير، ففقدت عقلها وأخذت تدور في الطرقات على غير هدى، قبل أن تكتشف بعد عدة أشهر أنها حامل بأبي. وعندما جاءت لحظة الولادة خرج الطفل صامتاً من دون أن يصرخ كما يصرخ كل الأطفال، فخافت جدتي أن تفقده هو الآخر، وخيّم شبح الموت على البيت مرة أُخرى. وتصادف في تلك اللحظة بالذات أن مرت بالبيت بدوية كانت تزور جدتي في مواسم الحصاد، عادة. رأت البدوية الحزن والخوف والوجوم على وجوه الجميع، فقالت لا تبتئسي يا أم محمود (هذا اسم

جدتي)، وأمرت بأن تُذبح شاة سوداء، وبأن يُسلخ جلدها ويُؤتى به إليها على الفور. أخذت البدوية الطفل بين يديها ولفته بجلد الشاة لفاً محكماً، وما هي إلاّ لحظات حتى صرخ أبي ودبّت الحياة في أوصاله بفعل حرارة الجلد المسلوخ للتو، أو لنقل بفعل هذه الحاضنة الطبيعية.. هكذا جاء أبي إلي الدنيا على يدَي هذه القابلة البدوية المجربة. أمّا لون الشاة الأسود فليس سوى موروث فولكلوري امتزج بخبرات الحياة على هذه الأرض التي تعاقبت عليها الحضارات.

III

القرية والرحيل

تقع قريتنا "تل الترمس" على بعد ٣٨ كم شمالي شرقي غزة بالقرب من طريق غزة ـ القدس الرئيسية المارة بالمجدل. وبحسب المراجع التاريخية، فإن عمرها لا يزيد على قرن من الزمان. وتتموضع بيوت القرية في سفح تل أثري يُطل على وادي سكرير، وكان لا يزال هناك على التل سور قديم عالٍ وبئر مهجورة وبعض الآثار الفخارية. احتُلت قرية "تل الترمس" في التاسع من تموز/يوليو ١٩٤٨ في عملية "أن ـ فار" التي شنتها العصابات الصهيونية في الأيام العشرة الفاصلة بين الهدنتين (٨ – ١٨ تموز/يوليو ١٩٤٨) على الجبهة الجنوبية، والتي قامت خلالها بعملية تطهير عرقي للسكان في ١٦ قرية تقع عند ملتقى أقضية غزة والخليل والرملة، منها قرى بعلين وتل الصافي والجلدية. وكان من أهداف العملية توسيع رقعة انتشار لواء "غفعاتي" شرقاً وجنوباً.

غادرنا القرية على عجل في ذلك اليوم المشؤوم من تموز/يوليو مع مَن غادر، ورافقنا كلب البيت إلى قرية تل الصافي المجاورة والتي كانت محطتنا الأولى في مسيرة الهجرة الممتدة، لكنه تركنا هناك وعاد إلى القرية وحيداً، ربما لأنه أدرك أن بعادنا عن القرية سيطول. وفي لحظة الرحيل كانت أمي تود لو تهرع إلى الحقل لتجلب "ضُمة" من سنابل السمسم، أو "كمشة" من تربة الحقل. وعندما زجرها أبي اكتفت بجمع بعض الأغراض الضرورية من فرش وأغطية وأطعمة، لكنها حرصت على إحضار "كواشين" وشهادتَي ميلادي وميلاد أخي الأكبر الصادرتين عن دائرة الصحة في مدينة المجدل. ولا يزال أخي الأكبر في مغتربه في المملكة السعودية يحتفظ بسندات الملكية تلك، كما لا أزال أحتفظ بعناية فائقة بشهادة ميلادي المكتوبة باللغات الثلاث العربية والإنجليزية والعبرية.

لم تمحُ أعوام اللجوء والمنفى تعلّق أمي بالأرض، ولا بموسم السمسم الأخير الذي خلّفته وراءها. وأعود بالذاكرة هنا إلى خمسينيات القرن الماضي لأستعيد كيف كانت أمي تفرد كواشين الأرض على "طبلية" الطعام في بيتنا في المخيم، وكيف كنا نحن الأبناء نشرع في حساب قطع الأرض التي تملكها من أرض القرية، وتاريخ كل قطعة وعمّن ورثتها، ثم تأخذ هي في سرد النزاعات العائلية التي صاحبت وراثتها للأرض.

IV

تذكار وحنين

منذ أعوام (في سنة ٢٠١٤) تصادف أنني كنت أحضر مؤتمراً أكاديمياً نظمته جامعة إكستر عن أفضل الممارسات في تطبيق برامج العودة المقارنة، مع التركيز على السياق الفلسطيني. وقد حضر المؤتمر عدد من الباحثين المرموقين، وناشطون من حركة العودة في فلسطين والشتات. وهناك التقيت بأحد الناشطين اليهود المعادين للصهيونية، وهو مواطن أرجنتيني ناشط مع منظمة "زوخروت"، وتعني "ذاكرات" بالعربية. وتعمل هذه المنظمة بالتنسيق مع بعض الجمعيات العربية في فلسطين ٤٨ وفي الضفة الغربية، في مجال إحياء وتوثيق ذاكرة القرى العربية المدمرة منذ سنة ١٩٤٨، وفي تنظيم مسيرات شعبية لتلك القرى في ذكرى النكبة. وفي سياق الحديث مع هذا الناشط عن قريتنا المدمرة التي أُقيمت على أراضيها الزراعية مستعمرة "تموريم"، وعدني بأن يزور موقع القرية ويرسل إليّ بعض الصور، وقد فعل. وفي السياق ذاته أرسل إليّ الدكتور سلمان أبو ستة، في إبان عمله على أطلس القرى الفلسطينية المدمرة، صورة جوية لبيوت القرية. الصور التي أرسلها إليّ الناشط اليهودي صامتة وصادمة ومؤلمة، ولا أريد لها أن تزيح من مخيلتي تلك الصور الجميلة والناطقة التي اختزنتها في ذاكرتي عن القرية، والتي كثيراً ما داعبت خيالي في لحظات الحنين.

V

حسرة

غادرت أمي الدنيا بعد مرور أكثر من ستة عقود على النكبة، ويا للمفارقة، في الشهر ذاته الذي غادرت فيه القرية... رحلت وهي تحلم بالعودة إلى حقل السمسم في قريتنا التي أقيمت على أراضيها مستعمرة "تموريم". أمّا أنا فلم أتمكن حتى من وداعها في عمّان! ■